رسالة الشيخ سليمان بن القاسم النفوسي إلى الإمام ناصر بن مرشد اليعربي والرد عليها (صور من العلاقات العمانية الجزائرية)

د. سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمي
جامعة السلطان قابوس/ سلطنة عمان

مقدمة

إن الهدف من هذا الموضوع هو إلقاء الضوء على رسالتين توثق العلاقات العمانية الجزائرية في العصر الحديث، أما الرسالة الأولى فهي من الشيخ سليمان بن القاسم المغربي النفوسي، والثانية جاءت ردا عليها وهي صادرة بأمر من الإمام ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي (1034هـ/1624م/1059هـ/1649م)، ونرمي من ذلك إلى إبراز التواصل بين علماء المذهب سياسيا وثقافيا، كما نهدف إلى الوقوف على أوضاع الجزائر وعمان خلال الثلث الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. وتتضمن الرسالة الأولى موضوعات تشكو ما أصاب ديار بني مصعب بوادي ميزاب بالجزائر من المحن والفرقة والشقاق، واختلاف أهل العلم والرضا بالواقع المرير خلال الثلث الأول من القرن الحادي عشر الهجري، وتسلط الانكشارية على الشعب فضلا عن الاضطرابات التي سادت المجتمع الجزائري حينئذ.

وأما الرسالة الثانية التي جاءت ردا عليها فقد كتبها العلامة خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي بأمر من الإمام ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي الذي بلغته أخبار وادي ميزاب وجبل نفوسه وما آلت إليه الخلافات والاضطرابات بهذه الجهات، والحزن الذي انتاب أهل عمان من أوضاع الوادي والجبل، وذكرهم بأن الفرقة عذاب وأن الاجتماع رحمة، ويقترحون عليهم انتخاب إمام لهم، ويطيعونه على السمع والمكره، وأن طاعته ونصرته واجبة عليهم ما دام ناشر العدالة.

وهناك رسالة جوابية ثانية على رسالة الشيخ سليمان كتبها الشيخ سعيد بن أحمد بن محمد بن عبدالله النزوي بأمر من الإمام ناصر بن مرشد، تناول فيها أصول المذهب الإباضي، والعلاقة التي تربط أتباع هذا المذهب، كما دعاهم لزيارة

عمان لمن يرغب في الجهاد أو لزيارة الإمام، كما ذكرت الرسالة طائفة من العلماء العمانيين على عهد الإمام ناصر بن مرشد، ولم نتمكن من ادراجها في هذا البحث التزاما بعدد الصفحات المسموح بها في المجلة.

مضمون رسالة الشيخ سليمان بن القاسم النفوسي إلى مشايخ من أهل المشرق (عمان)[1]

"بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وخليله، أما بعد،

فأهدي سلاما قد تحلى بحلل المجد في أعلى المراتب، ويرفل في برد الفخر من أسنا المواهب، تخامره المودة الصافية، يهتدي به الضليل، ويشتفي به العليل، لجمع ممن يرد عليهم من الإخوان رسول الخلد، ممن يلونهم من الأخدان من ظاعن وقاطن، ممن تمسك بالحبل المتين، وسنة الأمين، سالكا للمحجة الواضحة النيرة، عادلا عن السبل الموبقة المضلة دائبا بما دار به القرآن والسنة والإجماع، مما يشتمل على أنواع الإفراد والتنزيه، قطعا نابذا لفنون الإلحاد والتمويه، صدعا ممن أغنى شماع أنوارهم، وسطوع مناقبهم عن تعداد أفعالهم وذكر أخبارهم، خاليا وحاليا من أهل النحلة الإباضية، والدعوة الراسبية، كائنا ما كانوا ومحلا ما حلوا، ويعين من مست الحاجة إلى تعيينه، ودعت الحاجة إلى تخصيصه من الأهلة المقمرة، والأجنة المثمرة، أهل الروضة العمانية، الذين هم ذو الهمة السماكية، سلاما سرمديا، متصلا أبديا، يروح ويغتدي، عليهم ما لاح ابن الذكاء نور على القلل، وما انهمر شآبيب السواري على التلل، عم الله بعاجل العذاب وآجلة قائلهم وكائدهم، وأرغم أنف شازرهم وحاسدهم".

يمر سلامنا بأسافلها، مرتقيا لأعاليها، مر العهاد الوسمية، والبواكر العينية، من الجو (البريمي) وضنك وبهلة (بهلاء) ونزوى والرستاق وسمائل وإزكي وغيرها من البلاد والقرى، أظلهم الله بغمائم العافية، وأسبل عليهم من منحائه السلامة، وعليك بالشيخين البارعين والفطنين الناميين: الشيخ محمد بن عمر النزوي[2]، والشيخ مسعود بن هاشم البهلوي[3]، ومن لاذ وأنزر بهما، إذ هما قطب الرحا، وغاية القصوى، للصلادة والصلابة في دين الله، وإقامة حدوده، آمرين

بالمعروف، ناهيين عن المنكر، على عدل الكتاب والسنة وإجماع الأمة، دوام الأضحيان، ودوران الملوان، لا تنثني عن ذلك أعطافهما، ولا يولون له أدبارهما.

هذا وأقول مستلطفا مستعطفا: إن الذي أوجبه إليكم، لا زلتم عن صحائح العقائد والعزائم، ما رأينا من عتو الزمان وكبوه، وما أومأ إليه قسط حاليه مما يدل عن مشائم آتية، إذ المعهود منه التنكيس والتعكيس، فشأنه عهد خلوب ووعد عرقوب، إن أحسن ندم من حينه، وإن أساء أصر على إساءته، لا يدوم على حال، ولا يخلو من محال، هذا حسا لا حدسا وهو الذي أودع الأشجان في الأكباد، وأسهر الأجفان عن الرقاد، وكادت الأرواح أن تبين عن أجسادها، والمرضعات عن أولادها.

هذا وقد تخيم بجوره على الديار المصعبية والمحال المزابية، وأفردهم من بني الجنس قهرا واستيلاد باستسفال الأعالي، وقلبها على غير وجهها الذي خلقت، وأساسها الذي عليه بنيت وأسست، وأعقب المضض والحرض، وما أخصني فيه بالعرض نفسا لدهر، فدرى الأحباب بالكسد والأصحاب بالكمد، فالصنع منه لجون، والخالص من أجون، عياذا بالله من سطواته، واعتصاما به من هنات عجائم نقماته.

هذا وقد رثت حبالهم، وانهدت جبالهم، وقصت قوادمهم، واجتثت شفاههم، لما دارت عليه دوائر الغلابية، ومشائم صدائمة الغواشية، ولله الأمر والقضا، وبه لياذا من سؤاله الرضا، بانزواء العلم عنهم وانطوائه، بتودع حملته وانقباضها، واستيلاء الجهلة وإقبالها، فالتبك الأمر وأحتلك، فصاروا في العلاجم والطلائم يتخبطون، وفي مهامه الغي والردى يتحيرون، قبحه الله من عصر ما أسمجه، ومن دهر ما أخبثه، فمخادنته مخالبة، ومسايرته معاطبة، فهو أبدا مبني على الاعوجاج، وماء بحره أجاج، وعبوره ثجون، وصروفه شجون.

وحاصله: أنه لم يزل بنا أهل ديار بني مصعب ماكرا ناكرا عابسا بائسا، ماضي الصوارم في أجسادنا، وأسعر نار الاكتئاب في أكبادنا، حتى استهتك سترنا، واستشفى شرنا، واستنقد الأسد، واستدمث الصلد، واستمكن المناوي سؤله من المطلوب، واستظفر منه نبيل كل مرغوب، هذا وقد ترك الذود منتشرة نافرة،

ومشمئزة نايرة، في ليلة ماطرة ريحية، في غوضة مسبعة مؤذية، وقد حيل بينها وبين راعيها ببوائق العوائق وامتداد العلائق.

هذا وأدهى ما كان، وأشجى ما يكون ما هو متوقع ومترقبوه مما هو مسموع غير منكور في سالف الدهور، على عهد الرسول صلى الله علية وسلم من قول مسطح[4]، آفتهم قلة المطر وبيت الشعر، عياذا بالملك الخلاق، وقد فشي ذلك فينا حتى أضرح الجرح واستحب المزح واشغل الخلب الحلو، وأعقب الغث الصفو هل وقد أمهلتم؟ بل أهملتم ما عليه السلف الصالح فينا من المعاهدة بالمكاتبة والمناصحة والمخاطبة والمشافهة وتركتمونا سدى هائمين في أودية التضيع والتفريط دائبا دائما في تحصيل الخردقة وما تقام به الأصحاب عن معاهد ذوي الألباب.

فبينما نحن في حين الوحشة، إذ أتاح الله لنا بقدوم الحاج الشاب المكرم النزيه المعظم الحاج عمران علينا، فانفسخ بقدومه ما قد ضاق، وابتهج لبزوغه ما قد صوح، فانجلى به ما بالعين من العشا والقذى، وما بالجسد من الداء والأذى، فلما ألم بنا والحال لا حال والأيام لا أيام، أيام هوش ودهش وهواش واشتباك والتباك، فاستهنا واستراددنا بالحافرة استعطافا واستعجالا لما يفيض علينا من سحائب فضلكم وغمائم نولكم، واستشفاء لما بنا من العياء، وما حل بنا من اللوى، فتجهز مسعدا مستعدا عازما على المطلوبة منه، راغبا في المرغوب فيه، مع ما أودع فينا من الوحشة منه بعد الاستئناس بمطالعته، والاستكان بمجاورته، ومحاورته، فابتعد والدموع منا سائلة على الخدود، والأشجان متراكمه على الكبود، بالحنين المذيب للجلامد، والبكاء المصدع للصلائد، فالله الله سادتنا نوروا بصائرنا ضياء بواصرنا، ارحموا بكاءنا كما رحمنا بكاءه بتسريحه مع ما أودع فينا بطيب صفي الود، نافق ناصح، عالم بأسرار الطبائع، مفحص عن دخيل الدواء، يحوذ شكل داء، فإنا مترقبوه من تلقائكم، ترقب الرضيع من مرضعته، ومتيقن الشفاء من علته، أغيثونا إخواننا بالعجلة فإنا على شفا، باختلاف القلوب، والآراء واشتباك الأمور والتباسها، واستيلاء الأهواء واقتفائها.

هذا، وقد خيف الانفلات إن لم تعاجلوا استرداد النافرة، والمشمئزة الهائمة، هذا، ولا أقوى إن شاء الله أن أقدم على إساءة الظن بأهل الغبيرة

والآباء، والسنة والعزيمة، إلا ما استحسن الحال من التهديد والتشيع وقلة الوثوق بالأمارة بالسوء مع ما يدعو إليه الزمان من الأود والتعكيس والتنكيس، وما يسعر في الأجواف من المضض والحرض، وما يزلزل من الوجف والرجف، واستطماع الذين في قلوبهم مرض، من أهل الإلحاد والزيغ. سادتنا، هذا لا زالت ما يشوش عليكم، وإلا فقد خيف الخيف. العجلة ثم العجلة، وقال الجليل جل جلاله {قوا أنفسكم وأهليكم نارا}[5]، وإذا قناتنا تشعبث من دوحتكم، وعيوننا من سواحل بحوركم نبعت، وفضلكم على الغير كفضل الشمس على السها، كيف لا، وقد قال صلى الله عليه وسلم "الصخرة لأهل عمان" تواترا غير منكور؟ ومما ذلك إلا لتحقق المذهب والعقيدة وإضلاعه على صحة الأمر حاصلة بعد إضمار كل مسرة، واعتقاد كل مبرة، تحقيق النظر في المضمون المطلوب، والإعراض عما وراءه من الكتابة والألفاظ، بل ربما يعرب ويفصح ويستنهج السبل المشوبة بالإبر، والمهايع المسدودة بالزبر، بالإهمال والإغفال وترك المعاهدة إخواننا سنة من مضى، ولازلتم على الرضا.

تحليل رسالة الشيخ سليمان:

صدرت هذه الرسالة من الشيخ القاضي سليمان بن قاسم المغربي النفوسي، وهو من وادي ميزاب لكونه يصف حالة الوادي وما آل إليه من أحوال واضطرابات كبيرة، ونحن نعرف أن كلمة النفوسي تعود إلى جبل نفوسه بغرب ليبيا، وأن الصلات قائمة بين الجبل ووادي ميزاب عبر التاريخ والانتقال وارد بين أتباع المذهب لأسباب متعددة. ولم يجد الباحث ترجمة لهذا القاضي، ولكن على ما يبدو أن له اطلاعاومعرفة بعلماء عمان، ولعل هنالك رسائل سابقة على هذه الرسالة لم نحظ بها، ولكن أقرب رسالة وجهها علماء المغرب لأهل عمان الرسالة العلمية التي أرسلها الشيخ أبو مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي (ت: 971هـ/1564م) وتتكون من 33 صفحة من الحجم المتوسط، ومتوسط الأسطر 21 سطرا، ومضمونها إجابة من الشيخ عيسى على أسئلة في الأصول والفروع جاءته من أهل عمان.

استفتح الشيخ سليمان رسالته بالحمد لله وبالصلاة على رسول الله، ثم بدأ بإهداء سلامه، في عبارات مسجوعة، إلى أهل عمان وعلى وجه الخصوص إلى الشيخين محمد بن عمر النزوي، ومسعود بن هاشم البهلوي بعد أن مر سلامه إلى

البريمي وضنك وبهلا ونزوى والرستاق وسمائل وإزكي وغيرها من مدن عمان وقراها. أما الشيخ محمد بن عمر فهو محمد بن عمر بن أحمد بن مداد النزوي[6]، عاش في أواخر القرن العاشر الهجري والنصف الأول من القرن الحادي عشر، وهو من تلاميذ الشيخ عمر بن سعيد البهلوي (ت:1009هـ/1600م) صاحب كتاب "منهاج العدل"[7]، وكان من قضاة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي الذي مات في حياته في الغالب سنة 1050هـ، ورثاه صاحب كتاب "سيرة الإمام العادل ناصر بن مرشد"[8].

أما الشيخ مسعود بن هاشم بن غيلان بن غسان البهلوي فهو من فقهاء عمان ومن علماء النصف الأول من القرن الحادي عشر. ويبدو أنه أكبر سنا من الشيخ محمد فقد نصب للقضاء في 15 من جمادى الآخرة 1009هـ/29 ديسمبر1600م في دولة السلطان سليمان بن مظفر بن سلطان بن محسن النبهاني (983/1576م – 1019هـ/1610م)، وتولى القضاء للإمام ناصر بن مرشد في بهلاء، وتوفي الشيخ مسعود في أغسطس 1636م[9].

ثم انتقل الشيخ إلى وصف حالة وادي ميزاب والمصائب التي حلت به في عبارات جزلة يكتنفها الغموض وغير واضحة المعالم، "ما رأينا من عتو الزمان وكبوه، وما أومأ إليه قسط حاليه مما يدل عن مشائم آتية، إذ المعهود منه التنكيس والتعكيس" هل أصاب الوادي جفاف مثلا وأدى إلى المجاعة، أم قهر السلطة لأهله، أم وباء عم الوادي حينئذ، أم انتشار البدع نتيجة الجهل، أم ماذا؟ لأن الخطب كبير والمحنة التي أصابتهم عظيمة، حيث يقول: "هذا، وقد تخيم بجوره على الديار المصعبية والمحال المزابية، وأفردهم من بني الجنس قهرا واستيلاد باستسفال الأعالي، وقلبها على غير وجهها الذي خلقت، وأساسها الذي عليه بنيت وأسست، وأعقب المضض والحرض".

ويعود إلى الغموض فيقول: "وحاصله: أنه لم يزل بنا أهل ديار بني مصعب ماكرا ناكرا عابسا بائسا، ماضي الصوارم في أجسادنا، وأسعر نار الاكتئاب في أكبادنا، حتى استهتك سترنا، واستشفى شرنا، واستنقد الأسد، واستدمث الصلد، واستمكن المناوي سؤله من المطلوب، واستظفر منه نبيل كل مرغوب". ثم أوضحت الرسالة عما يعاني منه أهل الوادي "فانا على شفا، باختلاف القلوب، والآراء واشتباك الأمور والتباسها، واستيلاء الأهواء واقتفائها". وكانت فترة

السنوات الأولى من ثلاثينيات القرن الحادي عشر قد اتصفت بفترة مظلمة ولكن لا تعرف أسبابها ولماذا مظلمة فهل سببه عبث الإنكشارية في الجزائر وعلاقتهم بالوالي أم الأمراض الفتاكة التي غدت بهم. والسؤال من هم أهل "القلوب المريضة من أهل الإلحاد والزيغ" والذين سببوا هذا الغلق والاضطراب في وادي ميزاب؟، وتذكر الرسالة أن واديهم يمر في حالة من الاضطراب "هوش ودهش وهواش واشتباك والتباك".

في ختام الرسالة يطلبون النجدة والمعونة "أغيثونا إخواننا بالعجلة فانا على شفا، باختلاف القلوب، والآراء واشتباك الأمور والتباسها، واستيلاء الأهواء واقتفائها"، ويقول: "استعطفا واستعجالا لما يفيض علينا من سحائب فضلكم وغمائم نولكم، واستشفاء لما بنا من العياء وما حل بنا من اللوى"، وكررت الرسالة نفس الطلب "هذا، وقد خيف الانفلات إن لم تعاجلوا استرداد النافرة، والمشمئزة الهائمة"، وفي النهاية يحثهم " العجلة ثم العجلة، وقال الجليل جل جلاله {قوا أنفسكم وأهليكم نارا}".

وختمت الرسالة بذكر فضل العمانيين، ومكانتهم مستشهدة بأحاديث نبوية، ولم تحمل الرسالة التاريخ الذي كتبت فيه، ونعتقد أن الرسالة كتبت قبيل ظهور إمامة الإمام ناصر بن مرشد أو قد انتخب ولم يصل خبر إمامته وادي ميزاب، لأنه لم يرد ذكره في الرسالة، كما أننا لا نعرف كيف وصلت فهل مسعدا الذي أشير إليه في الرسالة هو الذي حملها إلى عمان أم إلى مكة المكرمة والتقى هناك بالحجاج العمانيين وسلمهم الرسالة ثم نقلت بواسطتهم إلى إمام عمان كما هي العادة المتبعة عند التواصل.

ومن الأسماء الواردة في الرسالة الحاج عمران، ومن خلال وصفه يبدو أن له مكانة دينية وعلمية كبيرة فيما بينهم "فبينما نحن في حين الوحشة، إذ أتاح الله لنا بقدوم الحاج الشاب المكرم النزيه المعظم الحاج عمران علينا، فانفسخ بقدومه ما قد ضاق، وابتهج لبزوغه ما قد صوح، فانجلى به ما بالعين من العشا والقذى، وما بالجسد من الداء والأذى"، وكأن قدوم الحاج عمران إليهم أزاح الهم عنهم، وخفف من مصيبتهم، ووحد كلمتهم وآراءهم ولكنه خرج فعادوا إلى سيرتهم الأولى يتجرعون محنتهم.

والاسم الثاني هو مسعد، ونعتقد أنه هو الذي حمل الرسالة إلى عمان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تقول الرسالة "فتجهز مسعدا مستعدا عازما على المطلوب منه، راغبا في المرغوب فيه، مع ما أودع فينا من الوحشة منه بعد الاستئناس بمطالعته، والاستكان بمجاورته، ومحاورته، فابتعد والدموع منا سائله على الخدود، والأشجان متراكمه على الكبود، بالحنين المذيب للجلامد، والبكاء المصدع للصلائد".

وأما عن خلاصة رسالة الشيخ سليمان النفوسي فيتضح من نصها أنه كان يعاني من الاضطرابات والفتن وانتشار الأمية والجهل وكثرة البدع والابتداع واختلاف الآراء "فانا على شفا، باختلاف القلوب، والآراء واشتباك الأمور والتباسها، واستيلاء الأهواء واقتفائها" فضلا عن الفقر المعتم نتيجة الصراعات التي كانت بين الدول الأوروبية والجزائر، وكذلك دور الإنكشارية واختلافها مع الولاة، ولهذا كانت عبارات الرسالة مركبة، وكلماتها صعبة الفهم، ولهذا احتار علماء عمان من المغزى الذي كان الشيخ يقصده، فردوا عليه برسالتين، ونحن لو تتبعنا التاريخ سنجد أن هناك رسالة أخرى بعث بها الشيخ عمر بن يوسف بن عبدون المصعبي اليسجني من وادي ميزاب إلى إمام عمان عزان بن قيس البوسعيدي في القرن 13هـ/19م, والتي تعالج موضوع البدع والابتداع وتفشي الجهل[10]، وحالة الوادي لا تختلف عما هو عليه في القرن 11هـ/17م.

والشيخ سليمان لجأ إلى عمان على بعد المسافة يطلب المساعدة والعون، والتي لم يوضح نوع هذه المساعدة بقوله:" هذا، وقد خيف الانفلات إن لم تعاجلوا استرداد النافرة، والمشمئزة الهائمة"، ويحثهم على ذلك وإلا "ما استحسن الحال من التهديد والتشيع وقلة الوثوق بالأمارة بالسوء مع ما يدعو إليه الزمان من الأود والتعكيس والتنكيس، وما يسعر في الأجواف من المضض والحرض، وما يزلزل من الوجف والرجف، واستطماع الذين في قلوبهم مرض، من أهل الإلحاد والزيغ". كما يلح الشيخ في رسالته فيقول: "سادتنا، هذا لا زالت ما يشوش عليكم، وإلا فقد خيف الخيف. العجلة ثم العجلة".

وهذا الإلحاح يوضح أن أهل ميزاب يتعرضون لخطب كبير ومن موجات هوجاء، صعب عليهم الوقوف لصده، ويطلبون علماء عمان وأهل الغبيراء النجدة

والمساندة. ونكرر القول بأن الرسالة لم تفصح عن أمر معين أو أمور يعاني منها أهل وادي ميزاب، فلغتها تتصف بالغموض، فهي رسالة مغلقة لا نستطيع بحال أن نحدد مضامينها.

- الرسالة الجوابية من أهل عمان إلى المشايخ من أهل المغرب[11]

"من إمام المسلمين، وسراج المتقين ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله موجد الأشياء بعد الإعدام، ومخرج الثمرات من الأكمام، ومصور الأمم كما شاء في ظلمات الأرحام، العالم بخفيات خواطر الأوهام، والمتفضل على خلقه بالألطاف والإنعام، مبدأ الخلق ومعيدها، وخالق البرية ومبيدها، الذي جلت عظمته، وعظمت منته، ودقت حكمته، وعزت كلمته، وعلت قدرته، وعمت بركته، ووسعت كل شيء رحمته، سبحانه من ملك كريم، بر رحيم، شكور حليم، واسع عليم، أحمده حمد من أقر بوحدانيته، وشهد بأزليته، وأخلص له العمل بسريرته، وعلانيته، وأشكره شكر من رضي بقضيته، وصبر على بليته، واستسلم لأحكامه، واعترف بفضله وأنعامه.

وأشهد أن لا اله الله وحده لا شريك له، الواحد القهار، الملك الجبار، العزيز الغفار، أظهر مبتدعات مصنوعاته، وابتدع مخترعات مكنوناته، دليلا للعقلاء ليتفكروا ويشاهدوا معجزاته ويعتبروا، وأشهد أن محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه وإمام أوليائه، وصفوته من أصفيائه، عبده النبي ورسوله العربي، أرسله {بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}[12]، صلى الله عليه وعلى أله أجمعين، صلاة موقوفة على التأبيد موجبه له النصر والتأييد، مدخره له عند ربنا العزيز الحميد، ما أختلف الثقلان وتعاقب الملوان[13]، أما بعد،

فهذا كتاب فيه تحية وافرة وألوكة ظاهرة، ونصيحة زاهرة، من إمام المسلمين ونظام المؤمنين، وبقية من تمسك بالدين، سراج الزاهدين، وعلم المجاهدين، وقدوة المجتهدين، ولي الله المأمون، وعبده الميمون، الهمام الأبي والأروع الزكي، الرضي ناصر بن مرشد بن مالك بن أبي العرب بن سلطان بن أبي العرب اليعربي المسلم الوهبي، ومن معه من المسلمين، لازالت بمس فضله من بروح السعود، ولا برح ظل عدله على الخلق غير مفقود، بحرمة الآيات والذكر الحكيم، والنبي المصطفى الكريم. إلى المشايخ السادة الفضلاء القادة، دعاة الناس

إلى طريق السعادة، أهل العلم والزهادة، القائمين بدين الله القويم، والمستقيمين على الصراط المستقيم، المستمسكين بنحلة أهل التحقيق، المخلصين بالإيمان والتصديق، الدائنين لله بما جاء في كتابه، الآخذين عن رسول الله بما أفتى به، مصابيح الدجى، ومعالم الهدى، ذي الحسب الأحسب، والنسب الأنسب، والجد الأغلب، سادة العجم والعرب.

إخواننا رجال بني مصعب، سلمهم الله سلامة باقية، وكلأهم حراسة وافية، وأسبل عليهم جميل ستره، وأعتمدهم بعظيم عفوه، وغفره، وأمدهم بالنصر والتأييد، وقواهم بالتوفيق والتسديد بحرمة الرسول المصطفى - صلى الله عليه وعلى آله - أهل الفضائل الأوفى، وسلم عليه وعليهم كثيرا. فإنا نحمد الله تعالى في حالة يحمد عليها، ونستعينه إلى القيام لأداء شكرها، ونسأله المزيد من فضله العظيم، ونيل ثوابه الجسيم، ونوصيكم وأنفسنا بتقوى الله، ولزوم طاعته، والمسارعة لمرضاته، فانه العالم بما تخفيه السرائر، وتجنه الضمائر.

وبعد،

فقد بلغتنا عنكم أخبار أبكت عيوننا، وضاعفت أحزاننا وهمومنا، حيث أخبرنا بافتراقكم واختلافكم، وشق عصاكم بعد ائتلافكم، وكنا قبل ذلك نرجو منكم الوصول والإعانة على هذا الأمر الجليل، فضاقت من أجل ذلك صدورنا، وتكدرت خواطرنا رحمة لكم، وخوفا على دينكم أن يختلسه الشيطان منكم، ويلقي بينكم العداوة والبغضاء، فانتبهوا رحمكم الله، وابتصروا واعتبروا، واعلموا على ما أنزل الله في كتابه، حيث يقول: { يا أيها الذين أمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون}[14]، وقال {وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين}[15].

فقوموا بما أمركم الله به، وانزجروا عما نهاكم عنه، فانه {يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون}[16]، وهو العالم بجميع أعمالكم، والمطلع على عقائد ضمائركم، فاتقوا الله، ثم اتقوا الله، فقد وضح السبيل، وقام الدليل، وأكمل الله الإسلام، وبين معالم الحلال والحرام، واحذروا من عدو الله، ثم احذروا أن يكدر عليكم أمر دينكم، ويبدلكم الشك بعد يقينكم، ويسلب الرحمة من قلوبكم، ويلقي الغل في صدوركم، فانه أكثر معاناة، وأكيس مقاساة، لأهل هذه الدعوة الزهراء والنحلة الغراء، وأما سائر الملل الضالة فقد آمن عليهم وكفى مؤنتهم، فاحترزوا منه كل الاحتراز، وارغبوا إلى الله في السلامة منه، واسألوا العصمة عنه، حمانا الله وإياكم من مكائده، ونجانا من إشراك مصائده.

واعلموا سادتنا أن الفرقة عذاب، وأن الاجتماع رحمة، وقد أدب الله المؤمنين وحثهم على إصلاح ذات بينهم، فقال: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون}[17]. فإن كنتم قد تآلفتم واجتمعتم وأصلحتم ذات بينكم فبرحمة من الله، ذلك الذي يسرنا منكم، وان كنتم مقيمين على اختلافكم، والحرب بينكم واقفة، ذلك نزعة من الشيطان لعنه الله، فبادروا إلى الله بالتوبة، ف {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}[18]. فكفوا عن الحرب، وسلموا أموركم إلى الله تعالى وأولي الأمر منكم، وهم أهل العلم على الاستقامة في الدين من الفقهاء الصالحين، وتآلفوا واجتمعوا و{اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}[19].

فان كان لكم إمام عادل مرضي، قد لزمتكم له بيعة صحيحة، وعقدة صريحة أو صح التراضي بإمامته، والاجتماع على عدالته، فواجب عليكم طاعته ونصرته، وحرام عليكم خذلانه ومعصيته من الرعية، ما استقام على الصواب، وتمسك بالسنة والكتاب، وإجماع المحقين من الأصحاب، فان خالف عليه أحد من الرعية، ومال عن الحق إلى الحمية، وأخذته العزة بالإثم والعصبية، فألينوا له المقال، ولا تبدءوه بالتعنيف والجدال، لعله يتذكر أو يخشى، وخوفوه الله تعالى لعله تنفعه الذكرى، وانصحوا له فسوف يرضى، فان أبى إلا نفورا واستكبارا، وجنح إلى الظلم والبغي مختارا، فأغلظوا قولكم عليه، وأعيدوا نصحكم إليه، فان

أنزجر وأبصر واعتبر، وإلا فعرفوه دعوة المسلمين، وأقيموا عليه حجة المؤمنين، ونابذوه الحرب، واحسروا له عن ساعد، وشمروا له عن ساق، إن وجدتم إلى ذلك سبيلا حتى يفيء إلى أمر الله، وإن لم يكن لكم إمام، فتكاتبوا وتراسلوا بالكف عن الحرب، ونادوا بالأمان في جميع أحيائكم وقرائكم [20]، واسلموا أموركم إلى فقهائكم وصلحائكم وأهل الفضل منكم، وأعطوهم على ذلك عهودكم ومواثيقكم، إنكم تبع لهم وطوع لأمرهم، ولا تخونوهم، ولا تغروهم، ولا تخدعوهم، ولا تمكروا بهم، وليجتمع العلماء والصلحاء والفقهاء والفضلاء من كل حي وقرية من قراكم، واختاروا رجلا منكم صالحا مرضيا، ثقة عدلا وليا، جلدا قوي عالما أمينا مأمونا منصفا حليما لا حسودا ولا حقودا ولا مخلفا للوعد ولا ناقضا للعهد محتملا للائمة، لا بخيلا ولا عجولا، لا يميل إلى قريب، ولا يتجانف عن بعيد، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وقدموه إمام لكم، وخليفة عليكم، وبايعوه على السمع والطاعة في السراء والضراء، والشدة والرخاء، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الجهاد كل فرقة باغية، وطائفة امتنعت عن الحق طاغية، وعلى إنفاذ الحق في القوي والضعيف والدنيء والشريف، وأخذ الحق من الظالم الغشوم للضعيف المظلوم، وقبض الصدقات من حلها، ووضعها في أهلها.

فإذا اجتمعتم على رجل منكم كما وصفنا، ولم يكن في الحاضرين من يفضله ويفوقه في العلم والحلم والورع والدين، فلا عذر له عنكم، وإجماعكم عليه إجماع، فاحكموا عليه بالإمامة، وان لم يتهيأ الاجتماع من كل حي وقرية، فليس ذلك باللازم شرعا بل استحبابا ويكتفي بمن حضر من المسلمين إلا أن يحضر البيعة أهل العلم والفضلاء في الدين من أهل الحل والعقد، ولو كانوا أربعين رجلا، وقيل: بالأقل تجوز البيعة، وكلما كان أكثر كان أفضل.

وإن كان قتالكم عن تأويل وديانة واختلاف كلمة، وكل أحد منكم يدعي الإمامة ويتسمى بها ويقول: إن الحق في يده دون الآخرين، فمن الرأي عندنا أن تكفوا عن الحرب وتغضوا أبصاركم على الإحن التي مضت، وتطئوا على الدماء التي سلفت، وتكتبوا شرح صفة حربكم، وسبب اختلاف كلمتكم، وكيفية اختلافكم، من أهل نفوسة وجربة، أو إمام عمان وإخوانكم منها، وانظروا رأيهم وقولهم وفتواهم في أمركم، واعملوا على رأيهم المصيب، وفتوى كل عالم أريب، فانا نرجو لكم سلامة دينكم، وتسديد أموركم، وتوفير أموالكم ونفوسكم.

وان كان قتالكم على الدنيا وطلب الرئاسة وحب الثناء وفخر السياسة، فذلك من أبخس البضائع، وأسوأ الصنائع، وأنجس الحظوظ، وأشأم الأعمال، وأخس الآمال، وأضر شيء بدين المرء ودنياه، وأعظم حسرة في حضرته وعقباه، وقد هلك بذلك كثير من الناس من الأولين والآخرين، إلا من عصمه الله، وتفضل عليه بمنه وحوله وقوته، نسأل الله لنا ولكم النجاة من الفتن، ومسامحة النفوس إلى إجابة دعوة الشيطان، والولوج في الظلم والعدوان، ونعوذ به ونعتصم به ونتوكل عليه، ونفوض جميع أمورنا إليه، نستهديه لإرشادنا وتوفيقنا وتسديدنا، إنه الكريم المفضال الكبير المتعال. فينبغي لكم الرجوع على ما أنتم عليه والفرار إلى الله بالكف عما زين الشيطان لكم، وسولت لكم نفوسكم إليه، والمبادرة إلى الله بالتوبة النصوح، وزجر النفس الجموح، واغتنام بقية الحياة القليلة بحبس الاعتداد للنقلة الطويلة، والندم على ما فات ومضى، وزال وانقضى، وإخلاص العمل لله تعالى بما بقى، فان الله واسع وعليم، وارغبوا إلى الله عز وجل في هدايتكم {ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون}[21].

وقد صار من أمر عمان مما هو أعظم مما ابتليتم به من الفتن النازلة، والإحن والحروب والمظالم المتكاتفة والفساد والمناكير الظاهرة، وعصي الله فيها بالمجاهرة حتى كاد لا يطمع أحد من المسلمين بتغيير منكر ولا رد مظلمة، وخفي الإسلام وأهله، وظهر الفساد كله، واستبيحت المحارم، وارتكبت المآتم، واستضعف المسلمون، وصاروا كالقابض على الجمر، لا يستطيعون إخفاء بدعة، ولا إظهار شرعة، وكاد [22] أن تنطمس آثار الدين وتستأصله الشياطين، فلما أراد الله إظهار المسلمين ونصرة المؤمنين، أظهر الله هذا النور الساطع، والحسام القاطع، ذا الفضائل المشهورة، والمآثر المشكورة، والسيرة الظاهرة المبرورة، إمامنا أعز الله نصره، ورفع ذكره، وأعلى قدره وأدام دولته ونصر صولته، وأيد سيادته، وحدد سعادته، وحمى به الدين، ونصر به الضعفاء والمساكين، آمين رب العالمين.

فاجتمع رجال ممن يسر الله أن يجتمعوا من المسلمين، وبايعوه على السمع والطاعة، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر الحق في القوي والضعيف والدنيء والشريف، فصدقوا له، فوفقوا وانتصروا من بعد ما ظلموا وهم قليل في كثير، ورمتهم العرب عن قوس واحد، وأرادوا {أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}[23]والفاسقون والمنافقون،

ففتحت لهم القلاع والحصون، ودانت لهم القبائل وانقادت لهم الملوك طائعين وكارهين، وسكنت الحركات، وردت المظالم وانتصر[24] المظلوم، وظهرت الدعوة, وقامت الحجة، وحييت السنن، وعظمت المنن، فالحمد الله على ذلك كثيرا.

فالله الله، ثم الله الله، يا قوام الإسلام, ويا صدور الأنام، ويا أمناء الله في بلاده، وخلفاءه على عباده، لا تتركوا أيامكم تمضي ضياعا، وتجافوا عن الراحة في الدنيا وأقلعوا عنها إقلاعا، اشتروا الحياة الباقية بالحياة الفانية، فعما قليل أنتم ميتون، وملاقون ما كنتم تعملون، والى إحدى المنزلتين أنتم صائرون {فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون}[25].

فهذه نصيحتنا إليكم، وذخيرتنا لديكم، ونصحنا لكم، ولستم أحق بالنصح منا [26]، ولكن هذه سنة الدين، ومراسلة المؤمنين. قال النبي صلى الله عليه وسلم "الدين النصيحة، الدين النصيحة"[27]، ومن خالف خولف به، ولا يصيب المؤمن من محن الدنيا ومصائبها إلا لذنب أسلفه، فذلك كفارة له، أو رحمة من الله تفضل بها عليه ليدخرها له ليوم فقره إليها، وقد قال الله تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير}[28] وأرشدنا الله وإياكم لأقوم المسالك، ونجانا وإياكم من جميع المهالك، ومن علينا وعليكم بسلامة ديننا وإخلاص نيتنا، وجعلنا وإياكم من عباده المؤمنين الآمنين المطمئنين الذين {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[29].

كتبنا لكم كتابنا هذا، ونحن في سلامة شاملة، ونعمة من الله كاملة، وكلمة المسلمين واحده، وحجتهم عالية، ودعوتهم ظاهرة، ويدهم قاهرة، والحمد الله رب العالمين، وصلى الله على رسوله محمد وآله وسلم تسليما، ولا حوله ولا قوة إلا بالله العليم العظيم، والسلام عليكم وعلى كافة إخوانكم ممن شملته شفقتكم ومحبتكم، ورحمة الله وبركاته.

تحليل رسالة أهل عمان

لقد بدأت الرسالة باسم كاتبها الشيخ خميس بن سعيد بن علي الشقصي الرستاقي مدبر إمامة ناصر بن مرشد، الذي عرفه الشيخ البطاشي بأنه "هو الذي أشار على إخوانه من العلماء والأكابر بالبيعة للإمام ناصر بن مرشد، لما

عرف من فضله وزهده وورعه، وكان ربيبا له فبايعه بالإمامة، وصار الشيخ خميس أحد أركان دولته وقاضيه، وقائد جيوشه لحرب البرتغال في مسقط"[30]، وقال الشيخ سالم بن حمد الحارثي محقق كتابه "منهج الطالبين" "إلى أن ألقى الزمام في عمان في أول القرن الحادي عشر على عاتق العلم العلامة صاحب السيف والقلم ذي الهمة والهمم، البحر الزاخر، الذي يقال في حقه" كم ترك الأول للآخر" خميس بن سعيد بن علي بن مسعود الشقصي الرستاقي"[31].

كتبت هذه الرسالة بأمر من الإمام ناصر بن مرشد اليعربي إمام عمان ومن معه من العمانيين تقول الرسالة: "فهذا كتاب فيه تحية وافرة وألوكة ظاهرة، ونصيحة زاهرة، من إمام المسلمين ونظام المؤمنين، وبقية من تمسك بالدين، وسراج الزاهدين، وعلم المجاهدين، وقدوة المجتهدين، ولي الله المأمون، وعبده الميمون، الهمام الأبي والأروع الزكي، الرضي ناصر بن مرشد بن مالك بن أبي العرب بن سلطان بن أبي العرب اليعربي المسلم الوهبي، ومن معه من المسلمين".

وجهت الرسالة إلى مشايخ من أهل المغرب وعلى الأخص إلى رجال بني مصعب دون ذكر اسم معين ولا عالم بذاته، ونعتقد أن الخطاب من الضرورة أن يوجه إلى عموم أهل وادي ميزاب لأن الخطب كبير، وأن الإمام ناصر بن مرشد وأهل عمان انزعجوا من الأخبار المتواترة إليهم من الجزائر حيث "بلغتنا عنكم أخبار أبكت عيوننا، وضاعفت أحزاننا وهمومنا وذلك باختلاف كلمتهم وافتراق أمرهم" حيث أخبرونا بافتراقكم واختلافكم، وشق عصاكم بعد ائتلافكم"، وذكرهم بأن العمانيين سبق أن قدموا اقتراحا لزيارتهم عونا للعمانيين في جهادهم للبرتغاليين، ولكن حينما وردتهم أخبار الوادي "ضاقت من أجل ذلك صدورنا، وتكدرت خواطرنا رحمة لكم، وخوفا على دينكم، أن يختلسه الشيطان منكم، ويلقي بينكم العداوة والبغضاء، فانتبهوا رحمكم الله، واعلموا على ما أنزل الله في كتابه"، وحذرهم بأن الفرقة عذاب وأن الاجتماع رحمة، وحثهم على إصلاح ذات بينهم. ثم تناول تقديم النصيحة لهم على النحو الآتي:

الكف عن الحرب فيما بينهم، "وسلموا أمركم إلى ولاة الأمور وهم أهل العلم المستقيمين في الدين من الفقهاء الصالحين"، ثم وضح لهم الأمر بأن وضع لهم خيارين: الخيار الأول: إذا كان لديهم إمام عادل فألزمهم بالبيعة له، وطاعته

ونصرته واجبة عليكم، وتحريم خذلانه ومعصيته، ما دام متمسك بالكتاب والسنة والإجماع، وإن خالف ذلك فانصحوه باللين، وحذرهم أن يبدوه بالعنف، فإن قبل منهم ورجع إلى الصواب فهو المطلوب وإن علا واستعلى فنابذوه بالحرب حتى يفئ إلى أمر الله. والخيار الثاني: إذا لم يكن لكم إمام فتكاتبوا وتراسلوا بالكف عن الحرب، ونادوا بالأمان في جميع أحيائكم وقراكم، سلموا أمركم إلى فقهائكم الصالحين وأهل الفضل منكم، وأعطوهم العهد والمواثيق، إنكم تبع لهم وطوع أمرهم. ثم على الفقهاء والعلماء والفضلاء منكم أن يختاروا إماما لكم تجتمع فيه شروط الإمام، فإن فعلتم ذلك وقدمتموه إماما لكم "وبايعوه على السمع والطاعة في السراء والضراء، والشدة والرخاء، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الجهاد كل فرقة باغية، وطائفة امتنعت عن الحق طاغية، وعلى إنفاذ الحق في القوي والضعيف والدنيء والشريف، وأخذ الحق من الظالم الغشوم للضعيف المظلوم، وقبض الصدقات من حلها، ووضعها في أهلها". ثم وضح لهم بأنهم إذا لم يتيسر لهم الاجتماع من كل حي وقرية، فليس ذلك بواجب شرعا بل استحبابا ويكتفي بمن حضر من المسلمين من العلماء والفضلاء في الدين من أهل الحل والعقد، ولو كان أربعين رجلا ويجوز تنصيب الإمام بأقل من هذا العدد.

أما إذا كان الصراع القائم بين أهل وادي ميزاب بسبب تأويل وديانة واختلاف الكلمة، وكل واحد يدعي بالإمامة ويتسمى بها، فقدمت الرسالة النصح في ذلك بأنهم يكفون عن "الحرب وتغضوا أبصاركم على الإحن التي مضت، وتطئوا على الدماء التي سلفت". ثم اقترحت الرسالة عليهم بأن يكتبوا صفة حربهم واختلاف كلمتهم، ويرسلوها لعلماء الإباضية في جبل نفوسة بليبيا أو في جزيرة جربة بتونس أو إلى إمام عمان، "وانظروا رأيهم وقولهم وفتواهم في أمركم، واعملوا على رأيهم المصيب، وفتوى كل عالم أريب، فانا نرجو لكم سلامة دينكم وتسديد أموركم وتوفير أموالكم ونفوسكم".

وإذا كان القتال الدائر فيما بينهم على الدنيا وطلب الرئاسة، وحب الثناء وفخر السياسة، فإن عاقبتها الخسران وبضاعتها كاسدة، وهي "أضر شيء بدين المرء ودنياه، وأعظم حسرة في حضرته وعقباه، وقد هلك بذلك كثير من الناس من الأولين والآخرين، إلا من عصمه الله"، ولهذا بادرت الرسالة بتقديم النصح لهم "فينبغي لكم الرجوع على ما أنتم عليه والفرار إلى الله بالكف عما زين

الشيطان لكم، وسولت لكم نفوسكم إليه، والمبادرة إلى الله بالتوبة النصوح، وزجر النفس الجموح، واغتنام بقية الحياة القليلة بحبس الاعتداد للنقلة الطويلة، والندم على ما فات ومضى وزال وانقضى, وإخلاص العمل لله تعالى".

وضربت الرسالة أمثلة لحالهم بالظروف التي اجتاحت عمان قبل قيام دولة اليعاربة، إذ تقول الرسالة واصفة أحوال عمان "وقد صار من أمر عمان مما هو أعظم مما ابتليتم به من الفتن النازلة، والإحن والحروب والمظالم المتكاتفة، والفساد والمناكير الظاهرة، وعصي الله فيها بالمجاهرة حتى كاد لا يطمع أحد من المسلمين بتغيير منكر ولا رد مظلمة، وخفي الإسلام وأهله، وظهر الفساد كله، واستبيحت المحارم، وارتكبت المآتم، واستضعف المسلمون، وصاروا كالقابض على الجمر، لا يستطيعون إخفاء بدعة، ولا إظهار شرعة، وكاد أن تنطمس آثار الدين وتستأصله الشياطين". ثم اجتمع علماء عمان وصلحاها وانتخبوا الإمام ناصر بن مرشد الذي بوجوده "فتحت لهم القلاع والحصون، ودانت لهم القبائل وانقادت لهم الملوك طائعين وكارهين، وسكنت الحركات، وردت المظالم وانتصر المظلوم، وظهرت الدعوة, وقامت الحجة، وحييت السنن، وعظمت المنن، فالحمد الله على ذلك كثيرا".

وفي نهاية النصيحة ذكرت الرسالة أن هذه النصيحة سنة الدين، وأن "لا يصيب المؤمن من محن الدنيا ومصائبها إلا لذنب أسلفه، فذلك كفارة له، أو رحمة من الله تفضل بها عليه ليدخرها له ليوم فقره إليها"، ثم ختمت هذه النصائح بالدعاء فقالت الرسالة: "أرشدنا الله وإياكم لأقوم المسالك، ونجانا وإياكم من جميع المهالك، ومن علينا وعليكم بسلامة ديننا وإخلاص نيتنا، وجعلنا وإياكم من عباده المؤمنين الآمنين المطمئنين".

ختمت الرسالة بذكر أحوال أهل عمان "كتبنا لكم كتابنا هذا، ونحن في سلامة شاملة، ونعمة من الله كاملة، وكلمة المسلمين واحده، وحجتهم عالية، ودعوتهم ظاهرة، ويدهم قاهرة، والحمد الله رب العالمين". ولعلنا نلتمس من هذه العبارة تذكير أهل الوادي بنعمة الأمن والآمان التي عليها أهل عمان بفضل وجود إمام عادل وأمين.

وأما عن خلاصة مضمون هذه الرسالة، فإن سبب كتابة الإمام ناصر بن مرشد إمام عمان لأهل وادي ميزاب هو ما أفزعهم من اختلاف كلمتهم والتناحر فيما بينهم، لأسباب جهلوها فهل هذا الاختلاف مرده إلى عدم وجود إمام وحاكم عادل واختلفوا عليه، أم اختلافهم بسبب الرئاسة وحب السياسة أم اختلافهم بسبب التأويل في الدين. وقد كتب الرسالة الشيخ خميس بن سعيد الشقصي وعرضها على الإمام، ثم أمر الإمام بإرسالها لعموم أهل وادي ميزاب ولم يشأ أن يخص فئة معينة خوفا من الفرقة واختلاف الكلمة. وقدم الإمام اقتراحا بأن يطيعوا إمامهم إذا كان لديهم إمام عادل، وإذا لم يكن لهم إمام فعليهم في هذه الحالة أن يتراسلوا أهل القرى ويسلموا أمرهم إلى العلماء والفقهاء والفضلاء، ويسكتون عما مضى، ويقوم هؤلاء باختيار إمام لهم وأجاز لهم بأن بيعة الإمام تجوز شرعا بأقل من الأربعين. أما إذا كان القتال الدائر فيما بينهم بسبب التأويل والدين، فعليهم في هذه الحالة أن يكفوا عن الحرب ويحصروا اختلافهم وأسبابها ويرسلوا بها إلى علماء الإباضية في جبل نفوسة أو جزيرة جربة أو عمان ليحسم الخلاف شرعا وعليهم التقيد فيما بعد به.

وأما إذا كان الخلاف والقتال بسبب الرئاسة وحب السياسة، فإن هذه من البضائع الخاسرة، وعليهم التوبة والرجوع إلى الحق، وذكرهم بأن هذا هو الخسران المبين، وحفزهم إلى تركها لأنها مهلكة. وذكرت الرسالة أن ظروف وادي ميزاب كانت مشابهة بظروف أهل عمان في إخلاف الكلمة والاحتلال الأجنبي لبلادهم وعدم وجود إمام يقودهم، ولكن بعد المراسلات بين أهل الصلاح من العلماء وأهل الرأي، نجحوا في مسعاهم وتحققت أمانيهم، واجتمعوا على تنصيب إمام لهم، وبذلك انتشرت نعمة الأمن السياسي والاجتماعي والاقتصادي على ربوع عمان.

وختمت الرسالة بشيئين: الأول أن هذه النصيحة التي قدمها الإمام لهم هي واجبه شرعا ومن سنن الدين، ولعل هذه المحنة التي يمرون بها كفارة لهم عن ذنوب اقترفوها بجهالة، وثانيهما أن أهل عمان ينعمون في ظل إمامهم بنعمة الأمن والرخاء. وهو إيحاء إلى أهل وادي ميزاب بأن الفتن هلاك للحرث والنسل، وأن الأمن نعمة من نعم الله على عباده، فاختاروا لأنفسكم النعمة "فالله الله، ثم الله الله، يا قوام الإسلام، ويا صدور الأنام، ويا أمناء الله في بلاده، وخلفاءه على عباده،

لا تتركوا أيامكم تمضي ضياعا، وتجافوا عن الراحة في الدنيا وأقلعوا عنها إقلاعا، اشتروا الحياة الباقية بالحياة الفانية، فعما قليل أنتم ميتون، وملاقون ما كنتم تعملون، وإلى إحدى المنزلتين أنتم صائرون", فبذلك يحفزهم بترك عقدة الخوف والتحلي بالصبر؛ لأن الحياة فانية والإنسان لا محالة سيلقى مصير قدره المحتوم

الخاتمة:

إن هذا العرض الذي قدمناه من خلال تحليل الرسالتين: الأولى كتبها الشيخ سليمان بن أبي القاسم النفوسي يستغيث بأهل عمان لإنقاذهم مما هم فيه من أحوال عمت وادي ميزاب، والرسالة الثانية من الإمام ناصر بن مرشد ردا على رسالة الشيخ سليمان إلى عموم أهل وادي ميزاب، وكتبها العالم خميس بن سعيد الشقصي بعد أن تفاقم الخطر، ووصلت الأخبار الغير مريحة عن الوادي، فاقترح الإمام ناصر عليهم عدة حلول منها اختيار لهم إمام وطاعته، ونبذ الفرقة والاختصام والإقبال على الصلاح, وخرجت هذه الدراسة التحليلية بعدة نتائج نجملها فيما يأتي:

إن التواصل بين إباضية المغرب وإباضية عمان مستمر بأوجه متعددة منها المراسلات أو الزيارات أو الكتب المؤلفة التي تعبر هذه المسافات الطويلة وأن أكثر الاتصالات بينهم تتم في مواسم الحج، وأن هذا التواصل بقى إلى يومنا هذا تراثا حضاريا يؤكد الهوية الحضارية للمجتمع العماني والجزائري.

جاءت الرسالتان لتقوية العلاقة بين عمان ووادي ميزاب وذلك بما حملته من معاني الخير والشعور بالانتماء المذهبي ووشائج المحبة والغيرة، وما هذه النصائح التي جاءت في رسالة الإمام ناصر إلا تعبيرا عن هذه الوشائج، ثم المحافظة على وجود المذهب الإباضي وكيانه بالجزائر.

كشفت الرسالتان عمق التواصل بين الجزائريين والعمانيين الذي بلا شك يمثل بعدا حضاريا قائما على أصول معرفية، وربط التواصل عبر الحقب التاريخية، يقوي من العلاقات المستقبلية، والتي رأيناه في العصور التالية ومنها في وقتنا الحاضر.

امتازت الرسالتان بلغة قوية فصيحة تنم على كفاءة كاتبها ممن يملكون ناصية اللغة وصنعة الكلام، ومقدرة بلاغية، كما أبرزت هذه الرسائل أصول

المذهب الإباضي بأسلوب منظم واضح، مستوعبا لمفردات الأصول دون إخلال ولا إطناب في المعنى المقصود على الرغم من كثرة استعمال السجع والمرادفات.

أبرزت الرسالتان أحوال وادي ميزاب وما اعتراه من محن وفتن، وكيف عالج أهل عمان ذلك بأن ثبتوهم على الإيمان، وأنهم في الولاية، كما قدموا لهم النصائح ليتجاوزوا المحنة التي أصابتهم من فساد الحياة الاجتماعية والسياسية، واضطراب الموقف الذي يعانون منه.

وكشفتا معلومات قيمة منها مكانة الإمام ناصر بن مرشد ووصفه وصفا كاملا لسلوكه وطبيعته تجاه شعبه، فضلا عن ذكر قائمة لعلماء عمانيين الذين مع هذا الإمام، بالإضافة إلى مفردات وعناصر أصول الإباضية.

أثارت رسالة الشيخ سليمان غيرة العمانيين على معتنقي مذهب الإباضية في المغرب فتناولوا أسس الإسلام ورجاله من الصحابة والتابعين، ونظام الولاية والبراءة التي تناولها علماء عمان من قبل، أمثال الشيخ أبي سعيد الكدمي في كتابيه "المعتبر"، و"الاستقامة"[32] وغيره، وذلك ليوطنوا إخوانهم في وادي ميزاب، وليثبتوا عزائمهم على الصبر والجهاد، وأنهم في الولاية إن أقاموا الحق ونشروا عدالة الإسلام، واصل الولاية الموافقة في الحق، والبراءة على العكس وبين المنزلتين الوقوف وهي واجبة فيمن لم يعلم عنه شيء عن حاله ولم يظهر منه موجب الولاة ولا موجب البراءة[33].

الهوامش

[1] الخراسيني، عبد الله بن محمد بن عامر. فواكه العلوم في طاعة الحي القيوم. تحقيق محمد بن صالح ناصر ومهنى بن عمر التواجيني، ج1، ط1، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، السيب: 1995م، ص. 198 – 202.

[2] هو الشيخ محمد بن عمر بن أحمد بن مداد الناعبي من علماء القرن الحادي عشر الهجري، قيل مات قبل عام 1059هـ/1649م، في زمن الإمام ناصر بن مرشد اليعربي (1034هـ/1624م – 1059هـ/1649)، من أهل عقر نزوى، كان من المساندين للإمام ناصر ومن قضاته انظر سيرته في: البطاشي سيف بن حمود. إتحاف الأعيان، ترتيب الدكتور سعيد بن محمد الهاشمي، ج3، ط1، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، السيب: 2001م، ص.470.

[3] هو الشيخ القاضي مسعود بن هاشم بن غيلان بن غسان بن غيلان الهلوي، من فقهاء النصف الأول من القرن الحادي عشر، تولى القضاء للنباهنة، وكان ذلك عام 1009هـ/1600م، وتولى القضاء للإمام ناصر بن مرشد في بهلاء، مات في 28 ربيع الأول 1046هـ/ 30 أغسطس 1636م، انظر البطاشي، المرجع السابق، ص. 495.

[4] هو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وهو ممن خاض في الأفك، انظر: ابن دريد، الاشتقاق، ص. 86.

[5] سورة التحريم، الآية رقم 6.

[6] البطاشي سيف بن حمود. إتحاف الأعيان. ترتيب الدكتور سعيد بن محمد الهاشمي، ج3، ط1، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، السيب: 2001, ص. 470.

[7] البطاشي، إتحاف الأعيان. ج2، ط1، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، السيب: 1994م، ص: 255 وما بعدها.

[8] ابن قيصر عبدالله بن خلفان. سيرة الإمام ناصر بن مرشد.ط1، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط:1977م، ص82.

[9] البطاشي المرجع السابق، ج3، ص: 495. السعدي، المرجع السابق ج2، ص: 190.

[10] بو حجام محمد ناصر. التواصل الثقافي بين عمان والجزائر، ط1، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب: 2003م, ص. 70.

[11] نص الرسالة أوردها الشيخ عبدالله بن محمد الخراسيني، انظر: الخراسيني، فواكه العلوم، ج1، ص.ص.: 213 – 219.

[12] سورة التوبة، الآية رقم 33، وسورة الصف، الآية رقم 9.

[13] هما الليل والنهار.

[14] سورة آل عمران، الآيات رقم 100 – 102.

[15] سورة الأنفال، الآية رقم 46.

[16] سورة الشورى، الآية رقم 25.

[17] سورة الحجرات، الآيات رقم 9 – 10.

[18] سورة الرعد، الآية رقم 11.

[19] سورة التوبة، الآية رقم 119.

[20] في الأصل أحبائكم وقريائكم أي من الأحياء والقرى.

[21] سورة يوسف، الآية رقم 87.

[22] في الأصل وكان.

[23] سورة التوبة، الآية رقم 32.

[24] في الأصل انتظر المظلوم.

[25] سورة المؤمنون، الآيات رقم 102 – 103.

[26] في الأصل فليس أحق بالنصح منها.

[27] لفظ الحديث في مختصر مسلم، قال رسول الله: "الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" الحديث رقم 32، دار مكتبة الهلال، بيروت: 1991م، ص: 25.

[28] سورة الشورى، الآية رقم 30.

[29] سورة يونس، الآية رقم 62.

[30] البطاشي، إتحاف الأعيان، ج3، ص. 150.

[31] الشقصي خميس بن سعيد. منهج الطالبين وبلاغ الراغبين. وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: 1979م، ج1، ص:5

[32] يبدو أن موضوع الولاية والبراءة تناولها عدد من المؤلفين العمانيين بكثرة، منها الشيخ أبو بكر أحمد بن عبدالله الكندي (ت:557هـ) في كتابه "التخصيص في الولاية والبراءة، ومنها الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي في كتابه كرسي الأصول في الولاية والبراءة، أما علماء الإباضية في المغرب: الشيخ عمر بن جميع في كتابه مقدمة التوحيد وشروحها، والشيخ الجيطالي في كتابه قواعد الإسلام، والشيخ الثميني في كتابه معالم الدين، وغيرهم.

[33] جهلان عدون. الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش. ط2، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب: 1991م، ص:56-57.

المصادر والمراجع:

1- الأزكوي سرحان بن سعيد. كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة. تحقيق: حسن محمد النابوذة، ج2، ط1، دار البارودي، بيروت: 2006م.

2- إيفانوف نيقولا. الفتح العثماني للأقطار العربية: 1516 – 1574م. ترجمة يوسف عطا الله، دار الفارابي:1988م.

3- البطاشي سيف بن حمود. إتحاف الأعيان. ترتيب الدكتور سعيد بن محمد الهاشمي, ج2 و3، ط1، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، السيب: 2001م.

4- بوتشيش إبراهيم القادري. التواصل الحضاري بين عمان وبلاد المغرب. جامعة السلطان قابوس، مسقط: 2000م.

5- بو حجام محمد ناصر. التواصل الثقافي بين عمان والجزائر. ط1، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب: 2003م.

6- التر عزيز سامح. الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية. ترجمة محمود علي عامر. ط1، دار النهضة العربية، بيروت: 1989م.

7- التميمي, عبد الجليل. أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م. المجلة التاريخية المغربية، العدد 6، تونس: 1976م.

8- الجزائري محمد بن صالح ناصر. معجم أعلام الإباضية. دار الغرب الإسلامي, بيروت: 2006م.

9- الجعبيري فرحات. البعد الحضاري للعقيدة الإباضية. مسقط: 1989م.

10-الجنحاني الحبيب. تاهرت عاصمة الدولة الرستمية. المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، السنة 12، تونس: 1975م.

11-جهلان عدون. الفكر السياسي عند الإباضية من خلال آراء الشيخ محمد بن يوسف اطفيش. ط2، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب: 1991م.

12-ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي. جمهرة أنساب العرب. ط1، دار الكتب العلمية، بيروت:1983.

13-الخراسيني عبد الله بن محمد بن عامر. فواكه العلوم في طاعة الحي القيوم. تحقيق محمد بن صالح ناصر ومهنى بن عمر التواجيني، ج1، ط1، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، السيب: 1995م.

14-خليفات عوض محمد. نشأة الحركة الإباضية. ط1، عمان: 1978م.

15-السعدي فهد بن علي. معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية. ج2، ط1، دار الجيل الواعد، مسقط: 2007م.

16-السالمي عبد الله بن حميد. تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان. مكتبة نور الدين السالمي، السيب: 2000م.

17-الشقصي خميس بن سعيد. منهج الطالبين وبلاغ الراغبين. ج1، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: 1979م.

18-الشناوي عبد العزيز. الدولة العثمانية: دولة إسلامية مفترى عليها. ج3، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة: 1986م.

19-ابن صغير. أخبار الأئمة الرستميين تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، المطبوعات الجميلة، الجزاير: 1986م.

20-الصلابي محمد علي. الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط.ط1، دار البيارق، بيروت: 1999م
21-طقوش محمد سهيل. العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة. دار بيروت المحروسة، بيروت:. 1995
22-عبد الحليم رجب محمد. الأباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بأباضية عمان والبصرة. ط1، مكتبة الضامري، السيب: 1990م.
23-عوض عبد العزيز. دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث. ج1، ط1. دار الجيل، بيروت: 1991م.
24-ابن قيصر عبدالله بن خلفان. سيرة الإمام ناصر بن مرشد.ط1، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط:1977م.
25-القشيري أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. مختصر صحيح مسلم. شرح ومراجعة سعيد محمد اللحام دار مكتبة الهلال، بيروت: 1991م.
26-كوران أرجمند. السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر. ترجمة عبد الجليل التميمي، تونس: 1993م.
27-مؤنس حسين. تاريخ المغرب وحضارته. ج3، ط1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت: 1992م.
28-الهاشمي عبد المنعم. الخلافة العثمانية. ط1، دار ابن حزم، بيروت: 2004م.